

الوعي الثقافي الزائف في روايات الربيع العربي

-قراءة في نماذج مختارة-

False cultural awareness in Arab Spring novels
a reading of selected models

د. عبد الكريم بركات¹، د. بوعلام حمديدي²

¹ مخبر تحليل الخطاب جامعة مولود معمري تيزي وزو. abdelkarim.barkat@ummtto.dz

² جامعة أمحمد بوقرة بومرداس، a.hamdidi@univ-boumerdes.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/09 تاريخ القبول: 2025/05/12 تاريخ النشر: 2025/09/01

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية نحو مكاشفة الحدث الثوري العربي خلال العقد الثاني من الألفية الثالثة - بين 2012 و 2021- في تصورات المبدعين والنقاد على اختلاف توجهاتهم الأيديولوجية والمعرفية، بوصفه حالةً سياسيةً واجتماعيةً أرتبطت ارتباطاً وثيقاً بتطلّعات الإنسان العربي، ما دفع الكثير من الروائيين لتناول الحدث عبر حفريات في أسبابه ومآلاته، وتقصي مدى حضور المثقف العربي في صناعة هذه الثورات، باعتباره جزءاً من المجتمع والأزمة، عليه أن يتبنى مشروعاً فكرياً وعملياً لكل الأزمات العربية، بغية صناعة التغيير وبناء دولة القانون والحريات، وهي الوظيفة التاريخية والأخلاقية -كما يرى غرامشي- التي وُجد لأجلها، لذا سلّطت الروايات العربية الضوء على تباين أدوار المثقفين في علاقتهم بالحاكم والمحكوم من خلال الحدث الثوري العربي أوقبله. كلمات مفتاحية: المثقف، الرواية، الربيع العربي، القراءة.

Abstract:

This research paper aims to reveal the Arab revolutionary event during the second decade of the third millennium - between 2012 and 2021 - in the perceptions of creators and critics regardless of their ideological and cognitive orientations As a political and social situation, it was closely linked to the aspirations of the Arab person, which prompted many novelists to address the event, through excavations into its causes and consequences, and to investigate the extent of the presence of the Arab intellectual in the making of these revolutions, as a part of society and the crisis, adopting an intellectual and practical project for all Arab crises, or before them. In order to create change and build a state of law and freedoms, which is the

historical and moral function - as Gramsci sees it - for which he was created. Therefore, Arab novels shed light on the varying roles of intellectuals in their relationship with the ruler and the ruled through or before the Arab revolutionary event.

Keywords: intellectual, novel, Arab Spring, reading.

* عبد الكريم بركات.

1. مقدمة

تتباين أدوار المثقفين في علاقتهم بالسلطة السياسية بين مثقف حقيقي يشتغل على نقد الممارسات الاستبدادية ويسهم في صناعة الوعي الجماهيري، أما الصنف الثاني هي الفئة التي تخندقت في صف هذه السلطة كآلية رمزية تهيمُ بواسطتها سياسيًا واجتماعيًا وثقافيا واقتصاديا، حين تبرّر للظلم والفساد بشتى أشكاله، فيصبح المثقف صورة زائفة يخون الحقيقة والوظيفة التاريخية التي وُجد لأجلها، هذا الذي دفع كثير من النقاد في كتاباتهم استعمال مصطلح "خيانة المثقفين" كـ: "إدوارد سعيد" و"جوليان بندا" و"باسكال بونيفاس" في كتابه "المثقفون المزيّفون"، فتناولوا المصطلح في كتاباتهم النقدية كدلالة على إقصاء المثقف للحقيقة من جهة، وارتمائهم في أحضان الأيديولوجية السلطوية المهيمنة من جهة أخرى، وهو ما حدث في المشهد السياسي العربي، حيث اصطف كثير من النخبويين المزيّفين في صف حكم الديكتاتوريات في مشاهد فاضحة رصدتها الروايات -موضع الدراسة- في تناولها لـ: الحدث الثوري العربي في العقد الثاني من الألفية الثالثة، حيث صوّرت عمق الأزمة بين هؤلاء المثقفين والجماهير، وهي الأزمة نفسها التي عجّلت بقيام هذه الثورات الشعبية لتحرير المثقف والبلاد من قبضة أيدي الاستبداد، لذا جاءت دراستنا تتناول صورة هؤلاء النخب المثقفة ودورها خلال الربيع العربي وقبله، من خلال الإشكالية النقدية التالية: كيف تمثل هؤلاء الروائيون صورة المثقف العربي خلال الحدث الثوري العربي في العقد الثاني من الألفية الثالثة؟

1. احتواء السلطة للمثقف في روايتي المشهد الثوري التونسي والجزائري:

كشف الروائي "أبو بكر العيادي" في رواية المشهد الثوري التونسي "ورقات من دفتر الخوف" على لسان بطل الرواية "طالب العدل" بتقنية الاسترجاع في الزمن (ما قبل الثورة) عن قائمة طويلة من النخبويين المزيّفين (كتّاب، فنانون، ممثلون، مخرجون سينمائيون، مذيعون، رياضيون، قضاة ومحامون، جامعيون، زعماء الأحزاب، رؤساء اتحاد الكتاب والشغل والصناعة والفلاحة...) لأكثر من عقدين من الزمن "على قدر طول المدّة التي رزح فيها الشعب تحت نير الاستبداد. أشرطة تذكّر بمواقفهم في عهد الطاغية، وهم يكيلون المديح لصانع التحوّل وصاحب العهد الجديد وخالق "المعجزة الاقتصادية" التونسية، ويبتدعون له من الخصال ما يفوق شيم الخلفاء الراشدين" (العيادي، 2019، صفحة 148)

لا يكفي فقط أنهم عجزوا كمثقفين عضويين أو تقليديين — على حد تعبير غرامشي- عن هموم الجماهير من خلال حمل آمال وتطلّعات الطبقة التي ينتمون إليها بل ساهموا في صناعة الاستبداد بسقوطهم في فخ السلطة و غواياتها وهذا النموذج من المثقفين الذي يرفضه الكثير من النقاد ويعيبونه على المفكر "غرامشي" لاختزاله في صورة مهنيّ مع قابلية تحوّلِهِ إلى بوق دعاية لأنظمة الاستبداد، وهي الفئة التي قصدها "جوليّان بندا" في كتابه "خيانة المثقفين" بأنّها تمثّلت زورا فكر المثقف حين خانت مبادئها وقيّمها باسم الوطنية في تبرير سطوة الأنظمة السّياسيّة على دول الجوار خلال الحرب العالميّة الأولى، في قوله: "ولكنّنا في هذه الأيام لم نر إلّا مفكرين، أو من ادّعوا أنّهم أصحاب فكر، يعلنون صراحة أنّ وطنيتهم لن تخضع لأيّ حكم أو مراقبة، وأعلنوا أيضا أنّ 'الدّولة إذا أخطأت فيجب علينا أن نراها على صواب' كذلك ألصقوا تهمة 'خيانة الوطن' بأبنائه الذين يدافعون على حريّة العقل، أو على الأقل يمارسون حريّة التعبير عندما يتحدّثون عن وطنهم" (بندا، 2020، صفحة 121).

إنّ من الصّور القبيحة التي تُظهر خيانة المثقفين، ما ورد في حق شخصيّة الكاتب الشاب "مكرم العروسي" من أرض المنفى، حيث نقل إلى صديقه بطل الرّواية "طالب العدل" انتقال خيانة النّخبة المزيّفة من الدّاخِل إلى الخارج، حيث وظّفهم النّظام بدل البوليس في التّجسّس عن بعض الكتاب الذين يناصرونه العداء في كتاباتهم ومقالاتهم الجريئة، وينقلونها إلى البوليس السّياسيّ كي يسلّط عليهم شرّ العقاب "حذار يا سيّ طالب أن تقع في المحذور، أنت مقيم بالخارج، ولست ملماّ بالمستجدات... البلاد تغيّرت، نصيحة منّي لا تفض بمكنون صدرك لكلّ من هبّ ودبّ، الكتابُ بخاصّة، فقد صاروا بنسبة تسعين في المائة تقريبا، يحرّرون التّقارير بعضهم عن بعض، للتّجمّع والدّاخلية، أو لكلّهما معا" (العيادي، رواية ورقات من دفتر الخوف، 2019، صفحة 38) وتبرّر الشّخصيّة نفسها أنّ تواطؤ هؤلاء المثقفين ليس ولاءً للنّظام بل حبّا وطمعا في المناصب والعطايا، والدّلّيل أنّ كثيرا من هؤلاء الجواسيس (الكتاب) صاروا يشغلون مناصب هامّة في الإدارات والبرلمان والمندوبيات الثّقافيّة وسلك الولاة وحتى البعثات الدّبلوماسيّة، وهي الصّورة التي تبرّر إلى حدّ ما موقف "جوليّان بندا" في تناوله لمفهوم المثقف حين شدّد على التّحليّ بالحسّ الأخلاقيّ للمثقفين كملوك أو فلاسفة يشكّلون ضمير الأُمّة، على اعتبار أنّهم "رجال كرّسوا حياتهم لخدمة العقل، فمنذ عصر ما قبل سقراط، كان المثقفون المخلصون لهذا الدّور مميزين عن غيرهم بسمات خاصّة، وحسب تعريفات "بيندا" فهم أولئك الذين لا يسعون وراء المصالح والمكاسب، بل يجدون سعادتهم في ممارسة فنّ أو مزاولة علم أو البحث في نظريات ما وراء الطّبيعة، وتتلخّص سعادتهم في التّرفع عن ملذات الحياة" (بندا، 2020، صفحة 52) إلّا أنّ هذا الطّرح قد يُبعد المثقف كفاعل في مجرى الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة.

يدخل بطل الرواية "طالب العدل" كمتقف ثوري في حوار مع أحد هؤلاء النخبويين المزيّفين في صورة الكاتب "ونيس بلعم" الذي يبرّر سياسة انبطاح المثقف وكَيْلِه المديح للنظام، بأنّ المسألة مسألة اختيار وقناعة، لا حبًّا في النظام بل حبًّا فيما يأتي من وراء مدحه، مضيفاً: "وهل نحن أرفع شأنًا من أدباء العرب وشعرائهم حينما كانوا يمدحون السلطان طمعاً في مكرمة؟ المتنبي وما أدراك فعلها! فكيف تعيب عليّ أمراً كان يأتيه فتسير به الركبان؟

- ولكنّ ما تقوم به يتجاوز المدح، قلت دون مجاملة.

- هو في رأيك هجاء؟ فليكن، ما دامت النتيجة واحدة.

- لا، بل هو هتك أعراض!

- وهل الهجاء إلّا كذلك؟

وضحك ضحكة صفراء ثمّ أردف: ونحن لم نبتدعه على أيّة حال، بل سرنا على خطى السّابقين من العرب الأوائل في شتّى العصور" (العيادي، رواية ورقات من دفتر الخوف، 2019، صفحة 141)

يكشف الحوار السّابق عن أخطر فئة من المثقفين في عصر الحداثة، التي لا يكفي أنّها انبطحت لحكم الاستبداد، وانكشفت سوءتها للجميع، وإنّما حاولت إقناع غيرها من الشّرفاء والجماهير بخطاباتها التّبريريّة لأفعال الحاكم المستبدّ مادام العطاء جزيلاً، في صورة تعيد نمط العلاقة التقليديّة بين المثقف (شعراء المديح) والسلطان، وهي أسوأ فئة أطلق عليها "باسكال بونيفاس" في كتابه "المثقفون المزيّفون صفة" المرتزقة، هؤلاء لا يؤمنون بشيء سوى أنفسهم، ينتسبون (أو بالأحرى يتظاهرون بالانتساب) إلى قضايا ليس لقناعتهم بصحتها، بل لأنّها في تقديرهم واعدة ولها مردود هام، وتسير في اتجاه الرّياح السّائدة، ومن شدّة تكرار الحجج نفسها، قد ينتهي الأمر بال (المرتزقة) إلى إقناع أنفسهم بصحّة التزامهم، الفاصل بين (مزيّفون) و (مرتزقة) ليس حاداً فجميعهم يدركون في كل الأحوال مخالفتهم للأمانة الفكرية، وجميعهم لا يعبّوها بها" (بونيفاس، 2013، صفحة 06) وهو ما اعترفت به السّلطة الرّمزية في رواية مشهد الحراك الجزائريّ- ما رواه الرّئيس للحبيب السّائح- في صورة المثقف التّقليدي "أستاذ الإعلام والاتصال" معين العروي" لشخصية الرّئيس "صالح الزّغبي" في غياب دورها كفاعل رمزي في صناعة الوعي الجمعي للتحرّر من سياسة الفساد في المشهد الجزائريّ لعقدين من الزّمن بتواطئها مع السّلطة من خلال السّكوت (عدم قول الحقيقة)، حيث جاء في خطاب شخصية الرّئيس أنّ الحراك لا يواجه شخصاً بعينه بل نظاماً كاملاً بما فهم المثقفين المتواطئين، فكان رد شخصية المثقف (أستاذ الإعلام والاتصال)، بقوله: "يجب الاعتراف، يا رئيس، بأنّنا كُنّا في شبه غيبوبة عمّا جرى خلال عقدين، فلم توقظنا سوى أصوات الشّباب الذي خرج ليحتلّ الشّوارع والفضاءات العموميّة مُنادياً بالتّغيير.

-الرئيس: من أنتم، إن لم يكن الكتّاب والجامعيّون والصّحفيّون ورجال القانون والنّقابيّون الذين يتحمّلون أكثر من غيرهم جزءاً كبيراً من مسؤوليّة الصّمت؟! (السّائح، 2021، صفحة 152)

إن من مكاشفات الاعترافات السابقة أنّ الحراك ثورةً ضدّ السّلطة السّياسيّة والرّمزية معاً، لعجز السّلطة الأولى عن بناء مجتمع المواطنة تحكمه دولة الحق والقانون، أما السّلطة الثّانية لا ينحصر عجزها فقط في تنوير أو تثقيف المجتمع ليوّكب حقوقه الاجتماعيّة والسّياسيّة، وإنما أيضاً في صمتها المطبق وعدم مطالبتها بالتّغيير أمام تغوّل السّلطة السّياسيّة، ويعود هذا السّكوت لسببين لا ثالث لهما، يتمثّل الأوّل في سياسة التّغيب والتّهميش الممنهجة من قبل السّلطة السّياسيّة ضدّ المثقّفين الحقيقيين بغية وأد صوت التّغيير، ويتمثّل الثّاني- باعتراف شخصية الرئيس- في شراء السّلطة لدمم تلك النّخب العضوية أو التّقليديّة -بالمفهوم الغرامشي- في كل الأجهزة الإداريّة والماليّة والإعلاميّة ومن الأحزاب والنّقابات والجمعيات وأرباب العمل، والبرلمان بغرفتيه، أنفقت عليها (السّلطة) من ريع البترول والغاز لاستعماله درعاً واقياً في مواجهة أي هزّة أو معارضه لأيديولوجيتها السّياسيّة، وهو ما تؤكّده شخصية الرئيس مرة أخرى في اعترافها للأستاذ، بقولها: "ففي مسار مسؤوليّتي لم أرتح يوماً لموظّفين مفكرين جدّاً. أنا مثل الزّعيم الذي يتخيّر وزراء ومستشارين مخلصين موالين ومريدين وتابعين طيّعين لا يناقشون أمراً ولا يسألون عن شيء، حرصت مع مرؤوسيّ على أن يكتفوا بالتّنفيد والإجابة" (السّائح، 2021، صفحة 220) وهو ما شكّل أزمة ثقة بين المجتمع والنّخب المثقّفة سواء قبل الحراك أو خلاله، ودليل ذلك "أنّه بعد قرابة تسعة أشهر من التّظاهر، لم يستطع أي حزب من الموالاة أو المعارضة أو نقابة أو جمعية من جمعيات المجتمع المدني أو طلبة أو شخصية سياسيّة استثمار الحراك الشّعبي وركوبه، ولم يقبل الحراك بأي تنظيم أو شخصية لتمثيله أو الارتكاز عليه" (بكي، 2020، صفحة 135) بالرّغم من خروج تلك النّخب إلى الشّارع وتأييدها للحراك، إلّا أنّ اتساع الهوة بين النّخب والجماهير الجزائريّة، طعن في صدقيّتها كسلطة رمزية يمكن أن تقود المجتمع إلى تأسيس دولة الحق والقانون لحفظ حرّيته وكرامته، وهكذا اهتزّت صورة المثقّف في نفسه أو في نظر غيره، وانقلبت الآية: "بعد أن كان المثقّف يركّز نقده على السّلطات، أصبح هو موضع النّقد، وبعد أن كان يتصرّف بوصفه قائداً للفكر أو صانعاً للرأي العام، أصبح يُرى إليه كحارس للنظام أو كشرطيٍّ للأفكار، وبعد أن كان يقدّم نفسه بوصفه الشّاهد والقيّم الذي يصف ويعيّن ويحكم، شاعراً دوماً نقده دفاعاً عن حريات التّعبير ومصالح الجماهير، أصبح

هو نفسه مادّة لنشوء خطاب نقديّ يتناول بالتّشريح والتّحليل نمط وجوده ومشروعيته، سلطته وموقعه، رأسماله ومصالحه، فاعليته وأدوات تأثيره" (حرب، 2004، صفحة 41) وهذا ما حدث في المشهد الجزائري حيث أصبح المثقّف يبرّر لأيديولوجية السّلطة ويدافع عنها، ففقد مشروعيته وثقته كفاعل في السّاحة السّياسيّة.

2. تبني المثقّف نظرية المؤامرة في رواية المشهد الثّوري المصري.

يتجدّد الوعي الثّقافي الرّائف في المشهد الثّوري المصريّ من خلال رواية "مدينة لن تموت" فيفاجئ الرّوائي "يوسف الرّفاعي" القارئ بتبني فكرة المؤامرة أدبيّاً، وجاءت كقضية ثقافيّة رئيسة قامت عليها كل أحداث الرّواية، إذ تفضي هذه الفكرة إلى أنّ الثّورة المصريّة والعربيّة عموماً صناعةٌ ماسونيّة صهيونيّة عالميّة أو ما يُعرف بمخطط "برنارد لويس" لتقسيم الوطن العربيّ.

تروّج الأيديولوجيّة الرّوائية لهذه الفكرة (المؤامرة) ثقافيّاً على لسان شخصية أستاذ التّاريخ الحديث بكلية الآداب "مندور" في خطابه لطلبة الجامعة في قوله: "إنّ أيّ عمل يمس أمن الوطن واستقراره لا بد أن تكون وراءه قوى خارجيّة وبخاصّة إسرائيل التي ليس من مصلحتها أن تجاور دولة لها ثقل مصر وقوّتها" (الرّفاعي، 2020، صفحة 60) كغيره "من المثقفين الذين رأوا فيما يحدث في شوارع مصر التّحدي الأكبر لمرحلة تحوّل كان كل شيء يبشر بها وتؤكدّها تصريحات المسؤولين في كل مناسبة تطلّ بمشروع جديد، ورأى أنّ مصر على مرّ العصور وجدت من سعى دائماً لتفتيت وحدتها وضرب منجزاتها" (الرّفاعي، 2020، صفحة 86) وعليه كل ما يحدث -في نظره- في مصر هو فوضى خلاقة مغلّفة بغطاء الحرّيّة تقودها الأيدياء الأجنبيّة لضرب المنجزات الحضاريّة بدعم من المثقفين والكتاب المأجورين، وأمام عدم استيعاب طلابه لتفسيراته المختلفة لأحداث تلك الفوضى في المشهد المصريّ، قائلاً: "الجهاد فلسفة إسلاميّة أصيلة ومبدأ قامت عليه أقوى دولة في التّاريخ وهي الدّولة الإسلاميّة، لكن عصرنا الحالي قلب موازين هذا المفهوم، فلم يعد الجهاد مسلّطاً على أعداء المسلمين بل على المسلمين أنفسهم، وأبرز دليل على ذلك جرائم القتل البشعة التي يرتكبها تلاميذ مدرسة الجهاد الأفغانية باسم الإسلام كل يوم... وإذا كان هؤلاء المأجورين جادين في دعوتهم إلى تحكيم الشّريعة الإسلاميّة فسيكونون أوّل من تُطبّق عليهم الحدود... هل من الإسلام أن يقتل أخاه المسلم استناداً إلى مبرّرات واهية لتكفيره؟... هل بات هؤلاء أوصياء على المجتمع بينما لا يعرفون عن الدّين إلّا القشور" (الرّفاعي، 2020، صفحة 88) تحمل خطابات الأستاذ السّابقة صورة المثقّف الذي يبرّر ما يحدث من فوضى خلاقة صنعتها قوى داخلية، في إشارة إلى حكم الإخوان (تلاميذ مدرسة الجهاد الأفغانية)، بتدبير من قوى خارجيّة (إسرائيل)، وهي الفرضيّة التي ذهب إليها عدد معتبر من النّخب المصريّة والعربيّة التي اهتمت الماسونيّة الصّهيونيّة والعالمية بأنّها

وراء الحراك العربيّ بدعم من جماعة الإخوان في الدّاخل، باعتبار الإخوان-حسبهم- "أحد أذرع الماسونية العالمية وصناعة المخابرات الأمريكية، واختيار الماسونية للإخوان لسببين لولاّهم الكامل لأمريكا، حيث إنّ الإخوان لا وطن لهم ولا انتماء لهم للأوطان، والسّبب الثّاني أنّ الغرب يعشقون مصالحهم، ويعتبرون جماعة الإخوان المسلمين تمثل الإسلام الوسط وليس المتشدد، ويستطيعون إقامة دول معهم بينها تحالف استراتيجي، لا يمانعون في إعطاء حلايب وشلاتين للسودان، وجزء من سيناء لإسرائيل، وتحويل الدولة إلى دويلات" (العينين، 2013/11/15) وهي العصا (نظرية المؤامرة) التي اتكأت عليها الأنظمة العربيّة لحماية عرش الديكتاتوريّة ولتغطية جرائم الظّلم والفساد، وفي الوقت نفسه اتكأ عليها كثيرٌ من المثقفين كمخرج لهم لتفسير ما يحدث للجماهير العربيّة من جهة ، ومن جهة أخرى للبقاء تحت جناح السّلطة ودفعها، وهو ما يؤكّده أحد الباحثين في هذا الشّأن، بقوله: "تبنى هؤلاء نظرية المؤامرة التي روجت لها الأنظمة المتداعية في محاولة استباقية ووقائية لنجاتها من "تسونامي" الشعوب الثائرة، والسعي لتشويه الثورات الشعبية والتندر على "الربيع العربي" والصاق تهمة المؤامرة عليه" (يعقوب، 2013) وعلى هذا الأساس لم يشكّل المثقف العربيّ كسلطة رمزيّة الرّؤية الحقيقيّة التي تفكّك مشكلات الإنسان العربيّ، وتهمّض به من خلال الخطابات المعرفية المُنتجة التي تحدث التنمية السّياسيّة والاقتصادية والثّقافيّة بل ذهب إلى إنتاج خطاب "المؤامرة" كاشفًا الأزمة التي يتخبط فيها المثقف العربيّ (الوعي الثّقافي الرّائف) مثلما كشفها "علي حرب" في كتابه "أوهام النّخبة أو نقد المثقف" في قوله: "إنّ المثقف العربيّ لم يُؤتَ له أن يلعب الدّور الذي لعبه المثقفون الغربيون منذ "فولتير" و"روسو" إلى "سارتر" و"فوكو"، أي لم يشارك في صناعة الرّأي العام وصوغ الوعي الجماعي أو في التّأثير في الدينامية الاجتماعيّة والسيروية التّاريخيّة، بمعنى أنّه لم يشكّل سلطة رمزية معترفًا بدورها وأهميتها، وقلمًا تمكّن من إقامة علاقة فاعلة ومتوازنة مع السّلطة السّياسيّة، وبالإجمال لم يستطع هذا المثقف أن ينتزع الاعتراف بمشروعيّته" (حرب، 2004، صفحة 42) وتلك المشروعية التي فقدها المثقف العربي على الأقل سواء خلال الحدث الثّوري العربي أو قبله.

3. المثقف الدّيني والطّائفي في المشهد الثّوري السّوري:

تصوّر الرّوائية "أسماء معيكل" في روايتها "الجحش السّوري" الأزمة التي يتخبط فيها المثقف المنتمي (الدّيني) الذي انغلق فكره عند حدود الطّائفيّة والمذهبيّة، بعيدا عن الرّؤية الدّينيّة المنفتحة على قضايا الإنسان الكبرى التي ينبغي أن تشغل فكره لمقاربة قضايا عصره، خاصّة في ظلّ التّناطح السّياسي (الحرب) بين النّظام والمعارضة في المشهد السّوري، أين رصدت الرّوائية على لسان بطل الرّواية السّارد "أوديب" في رحلة التّخفي الجحشي إلى كل مناطق تل الورد (سوريا) التّوجّه الطّائفيّ للمثقفين وانقسامهم، تعمّد قول ذلك في رحلته إلى صفوف آل جراح (جناح المعارضة) باستماعه إلى خطاب أستاذ

التّاريخ-في رده على قائد مجموعته-الّذي يرفض حضور القصّة الطّائفية والمذهبية (التّكفير) في الثّورة على آل قداح (جناح السّلطة)، إلّا أنّ القائد بقي متمسّكا بفكرته الدّينيّة الّتي تصف "آل قداح" على أنّهم أهل بدع، ما يستوجب التّحرّر من استبدادهم كما أمر الإسلام.

أما ما يجري في تل الورد "سوريا" من تصادم طائفيّ ومذهبيّ بين المثقفين علّق عليه بطل الرّواية "أوديب" كمثقف لا منتمي، بقوله: "بعضهم كان مؤمنا بضرورة الإطاحة بآل قداح وزعيمهم السّبع الابن، لأنّهم مستبدون وظلمة، استعبدوا البلاد والعباد، وبعضهم كانت القضية الطّائفية والمذهبيّة هي المحرك له، وبعضهم وجد نفسه مضطرا لمسايرة أهل منطقته فانخرط في القتال، كي لا ينظر إليه على أنّه متواطئ مع العدو، وبعضهم قاده الإحباط واليأس، لينخرط في هذه الحرب، معتقدا بأنّ ذلك سيجعل لحياته هدفا ومعنى، وبعضهم آمن بما كان يشاع من خطب حماسيّة عن العودة إلى الأصاله، وتحقيق عدالة الزّمن الأوّل، وتطبيق الشّرع كما كان الحال عليه فجر الإسلام، وما راقي شيء مما سمعت" (معيكل، 2021، صفحة 142/143). في إشارة مباشرة إلى انقسام المثقفين (المتنمين) بمنظور طائفيّ ومذهبيّ خالص يرى أنّ "مثقفي الأقلّيات (العلويون منهم بوجه خاص) اصطَفُوا مع نظام "الأقلّية" ضد ثورة الأكثرية السّنيّة، فيما وقف المثقفون السّنة مع هذه الثورة لأنّها ضد النظام الأقلّوي. أو بوضوح أشد، وقف مثقفو الأقلّيات ضد الثورة لأنّها إسلامية سنيّة، فيما وقف مثقفو الأكثرية المذهبية ضد نظام الأسد لأنّه "علوي". أي فسّر موقف المثقفين على أنّه انحياز طائفي في الأساس. وإلا فلماذا تغلّبت المواقف المعادية أو المتردّدة حيال الثورة لدى مثقفي الأقلّيات، وتغلّبت المواقف الداعمة لها بجذرية ومن دون تردّد لدى مثقفي الأكثرية؟" (شعبو، 2023) وبهذا سجن هؤلاء المثقفون أنفسهم داخل هذه الثّنائية (علويّ سنيّ) دون أن يعوا تبعات هذا التّخندق الّذي لا ينتج الحقيقة بل ينتج وعيا زائفا في رصدهم للواقع، أين تتحوّل خطاباتهم من خطابات إصلاحيّة نقدية إلى خطابات رجعية تبريرية تحكّمها الأيديولوجيّة الطّائفية والمذهبية، لكن هذه المطابقة بين الموقف السّياسي والتّوجّه الدّيني الطّائفي في المشهد الثّوري السّوري لا يمكن أن تنفي وجود بعض المثقفين الّذين لا تحركهم هذه الأيديولوجيا بل ينحازون إلى قيم العدل والحرية، والتزامهم بمأساة الأمّة كقضية جوهرية في نضالهم ضدّ سياسة الظّلم والاستبداد بوقوفهم في صفّ الثّورة الشّعبية، إلّا أن هذا الصّوت الحرّ تغلّبت عليه تلك الأصوات المؤدلّجة.

وفي رحلة بطل الرّواية "أوديب الجحش" إلى آل غسان (المسيحيين)، وآل سلطان (الدّروز) يسجّل السّارد انتقال حُى الصّراع السّياسي بين العلويين والسّنيين إلى هذه المناطق، أين علت النّبرة الطّائفية بين المسلمين والمسيحيين والدّروز، وانتقل معها أيضا الانغلاق الفكري الرّهيب إلى نخب تلك الطّوائف والمذاهب في صورة "الأب بطرس" كمرجعية مسيحية، والشّيخ الشّعشعاني كمرجعية درزية، وشيخ

المسلمين، إذ ساهمت هذه النّخب الدّينيّة-في ظلّ الحرب بين النّظام والمعارضة- في إنتاج خطابات متطرّفة تبيح قتل الإنسان وجاءت قضية الزّواج المختلط لتفضّح هذا الانغلاق الفكري، حين أفق هؤلاء الشّيوخ بمقتل العشيقين (الشّابّ المسيحي "مطانيوس" والفتاة المسلمة "زهراء") وتكرّرت القضية نفسها في جبل آل سلطان (الدّروز)، وهي المشاهد الأليمة (القتل والتّدمير) الّتي دفعت بطل الرواية "أوديب" كمثقّف لا منتهي لتلك الأيديولوجيات الطّائفية والمذهبيّة، بعد أن ضاقت به الأرض، ولم يحتمل قسوة البشر، إلى القول: "كفرت بالطّوائف والأديان الّتي تبيح قتل الإنسان، وامتهانه على هذا النّحو، وتذكرت ما فعله آل غسان بزهرء والشمّاس، لم أر، ولم أسمع، حين كنت آدمياً، ولا بعد أن صرت جحشا عن حمارٍ قتل حماراً لأيّ سبب كان، الحمير تعيش بسلام ووثام، ولا تناحر بينها حول عرق، أو مذهب، أو طائفة، أو سلطة، أو أرض أو حدود... الحمير كلّها حمير، فطوبى لمعشر الحمير!" (معيكل، 2021، صفحة 271) وبهذه الصّور الأليمة في المشهد الثّوري السّوري أرادت الرّوائية "أسماء معيكل" أن تنقل للقارئ صورة المثقّف المتعدّد الطّوائف والمذاهب (مثقّف علوي، مثقّف سنيّ، مثقّف مسيحيّ، مثقّف درزيّ) الّذي تجرّد من الهوية الوطنية الجامعة إلى هوية طائفية ومذهبية جرّت البلاد والعباد إلى دمار وقتل وتشردم، وتحولت الثّورة من انتفاضة ضدّ سياسة الاستبداد إلى حرب طائفية ومذهبية.

وعليه فأزمة المثقّف الدّيني والطّائفي هي أزمة مرجعيّات على اعتبار أنّه سجين هذه التّعددية الأيديولوجيّة المنغلقة على ذاتها، جعلته لم يستطع التّحرّر منها إلى الاهتمام بعمق القضية الجوهرية (الوطنية) وإنتاج حركة فكرية تواكب الواقع الاجتماعيّ ورهاناته، ولا يكون ذلك إلا بـ "ابتداع المثقّف صيغة جديدة لعلاقته بذاته وفكره، تمكّنه من ممارسة فاعليته في محيطه ومجتمعه وعالمه، والمثقّف هو فاعل فكريّ في المقام الأوّل، بما يخلقه من بيئات فكرية أو عوالم مفهومية تتضاعف معها إمكانيّات التّفكير والتّدير، فهذه مهمّته الأصليّة: ترجمة الواقع إلى إشكالات فكرية، أو صوغ العالم صياغة مفهومية على نحو يمكن استثماره، سياسياً وعملياً، في عقلنة السّلطات والقرارات والممارسات، أو في صناعة الأحداث والتّعامل الفعّال مع الوقائع" (حرب، 2004، صفحة 148) وهو ما لم يلتزم به بعض المثقّفين السّوريين بسبب انغلاقهم الفكري حول الطّائفية والمذهبية الّتي زادت من لهيب المعركة السّياسيّة والحربية في المشهد السّوري.

4. خاتمة

أسفر البحث عبر حفريات في صورة المثقّف في المتن الروائي العربي في الألفية الثالثة، أنّ القارئ من خلال هذه النّماذج الإبداعية يستشفّ حضور المثقّف في المشهد الثّوري العربي (التّونسي، الجزائري، المصري، السّوري) في صورة مهمشة ومهزوزة كسلطة رمزية لم تثبت وجودها في هذا الحراك العربي اجتماعياً أو سياسياً، بوصفها أداةً للتّنوير والتّغيير والتّثوير، وأنّ الرّبيع العربي صناعةً جماهيريةً في

غياب تام للطبقة المثقفة، وأمّا المثقف الحقيقي اقترن حضوره في ظلّ السلطة السياسيّة الحاكمة بالنّفي والقتل والتّعذيب.

جاءت روايتا المشهد الثّوري التّونسي والجزائري لمكاشفة صورة مثقف سقط في فخ السلطة السياسيّة وغوايتها مختزلاً وجوده في صورة مهنيّ قابلٍ للتبعية وبوق من أبواق الدّعاية التي توظّفها السلطة السياسيّة كآلية من آليات الهيمنة الرّمزية ما قبل الحدث الثّوري وأثناءه، فخانت بذلك وظيفتها التّاريخيّة باسم الوطنيّة وتبريرا لسطوة النّظام السياسيّ الحاكم داخل الوطن وخارجه بتواطئها وولائها الأعمى، حبّاً وطمعاً في العطايا والمناصب، ودليل ذلك شغلهم لمناصب هامّة في الإدارات والبرلمان والمندوبيات الثقافيّة وسلك الولاة وحتى البعثات الدّبلوماسية، ومنه يُستشف أنّ السلطة السياسيّة الحاكمة عجزت عن بناء مجتمع المواطنة والقانون والحريات، بشرائها لتلك النّخب العضوية أو التّقليدية -كما يصفها غرامشي- وتهميشها للمثقفين الحقيقيين قصد إخماد صوته وإرادتهم نحو التّغيير،

أما عن رواية "مدينة لن تموت" ليوسف الرّفاعي فهي تعبر عن وعي ثقافي زائف في المشهد المصري، حيث فاجأ الرّوائي القارئ العربيّ على الخصوص، بتبنيه فكرة المؤامرة (الثّورات العربيّة صناعةً ماسونية صهيونيّة عالمية) في روايته جاعلاً منها مبرراً رئيساً لقيام الثّورات في مصر والوطن العربي، وهي الرّؤية الأيديولوجية التي كشفت عن شخصية ثقافية روائية مؤدلجة تعمل ضدّ الأيديولوجية السّائدة، التي ترى أن الثّورات صناعة جماهيرية ضدّ نظم القمع والاستبداد، وهو ما جعل السلطة السياسيّة تتكأ على هذه النّظرية لحماية عرشها، كما اتكأ عليها المثقف المنبطح لتفسير ما يحدث للجمهور العربيّ من جهة، وبقائه تحت جناح السلطة ودفعها من جهة أخرى.

وجاءت رواية "الجحش السّوري لأسماء معيكل" لتؤكد فشل الثّورة السّورية بسبب الأزمة التي يتخبّط فيها المثقف المنتمي (الديني) الذي انغلق فكره عند حدود الطائفية والمذهبيّة، بعيداً عن الرّؤية الدّينيّة المنفتحة على قضايا الإنسان الكبرى التي ينبغي أن تشغل فكره لمقاربة قضايا عصره خاصّة في ظلّ التّناطح السياسيّ (الحرب) بين النّظام والمعارضة في المشهد السّوري، وعلى هذا الأساس لم يشكّل المثقف العربيّ عموماً بوصفه سلطة رمزيّة- الرّؤية الحقيقيّة التي تفكّك مشكلات الإنسان العربيّ، وتنهض به لتحقيق دولة القانون والحريات.

جنح الرّوائيون - في أغلب الأحيان- إلى لغة تقريرية مباشرة يعيها الكثير من النّقاد في تناولهم مدى حضور المثقف العربيّ وفاعليته سياسياً واجتماعياً وأيديولوجياً وثقافياً، ولعلّ تحرّر هؤلاء الرّوائيين من سلطة الرّقيب إلى التّزوع نحو هذه اللّغة من جهة، ومحاولة إيصال مقولاتهم وأيديولوجياتهم إلى أكبر شريحة من الجماهير العربيّة من جهة أخرى، دون التّستروءاء أقنعة أسطورية أو تاريخيّة أو رمزيّة، وعيًّا منهم بعصر السّرعة والثّورة المعلوماتية التي يفضلها الشباب العربي في الوقت

الزّاهن على القراءة وتفكيك رمزياتها، وهذا ما يعرف بالأدب الاستعجالي، وعليه لا يمكن الحديث عن كتابة روائية جديدة على الأقل خلال فترة الحدث الثّوري العربيّ في الألفية الثالثة.

4. قائمة المراجع:

- أبو بكر العيادي. (2019). *ورقات من دفتر الخوف*. أريانة، تونس: ورقة للنشر والتوزيع، ط1.
- الرّفاعي، ي. (2020). *رواية مدينة لن تموت*. الهرم، الجيزة، مصر: دار لمار للنشر والتّوزيع والترجمة، ط1.
- السّائح، أ. (2021). *ما رواه الرّئيس*. المسيلة، الجزائر: دار ضمة للنشر والتّوزي، ط1.
- العيادي، أ. ب. (2019). *رواية ورقات من دفتر الخوف*. تونس: ورقة للنشر والتّوزي، ط1.
- العينين، م. أ. (15/11/2013). *الماسونية بين غموض المعنى وواقعية الاحداث*. العدد، 46365 مجلة .
بوابة الأهرام [Récupéré sur https://gate.ahram.org.eg/daily/News/242586.aspx](https://gate.ahram.org.eg/daily/News/242586.aspx)
- بكيس، ن. (2020). *الحراك الشّعبيّ الجزائريّ (النّسخة المنقّحة لثورات الرّبيع العربيّ)*. (تلمسان، الجزائر: النّشر الجامعيّ الجديد، ط1.
- بونيفاس، ب. (2013). *المثقفون المزيّفون (النصر الإعلامي لخبراء الكذب)*. (ت. ر. مخلوف (Trad., دمشق، سوريا: ورد للطباعة والنّشر والتّوزي، ط1..
- جولينان بندا. (2020). *خيانة المثقفين*. (ترجمة: محمد صابر، المترجمون) وهران، الجزائر: ابن النّديم للنشر والتّوزيع، ط1.
- حرب، ع. (2004). *أوهام النّخبة أو نقد المثقف*.، بيروت، لبنان: المركز الثّقافي العربيّ، ط3.
- شعبو، ر. (18 06 2023). *هل المثقف السّوري طائفي*. *الحوار المتمدن*. Récupéré sur <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=796425>
- معيكل، أ. (2021). *رواية الجحش السّوري*. بيروت، لبنان: المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر، ط1.
- يعقوب، أ. (2013, 09 25). *عن المثقفين والتحوّلات العربيّة الكبرى، الحياة الجديدة*. p، العدد. 6428.